

## هل كان الزهاوى فيلسوفاً؟

للأستاذ محمد رجب البيومي

— كما يقول الأستاذ مهدي علام<sup>(١)</sup> — في أساطير القمصان ،  
وشمر الشعراء ، وأقوال الحكماء ، ثم اجتازت هذه الرحلة على  
جسر من أنصاف الفلاسفة ، حتى وصلت إلى أيدي أساتذة الفكر  
وسادة العقل البشري فأصبحت ذات مذاهب دقيقة ، ومدارس  
متشعبة تكبد الأذهان وترهق العقول

فهل كان للأستاذ الزهاوى مذهب خاص يدعو إليه ، وقيم  
الأدلة على صحته ، ، حتى يكون فيلسوفاً يقيم مكانه بين الفلاسفة  
الخالدين ؟ !

إننا نبحت في إنتاجه — النثرى والشعرى معا — فلا نجد  
غير مجموعة متناقضة من الآراء ، وقسطاً وافراً من الشكوك  
العقلية ، لا نجد من يذهب بها إلى الجزم واليقين ، والشاعر حائر  
مضطرب لا يدرى بأى رأى يتمسك ، وإلى أى سبيل يتجه ،  
فهو من هواجه في ليل دامس لا يشرق فيه بدر منير ، وقد  
دارت أ أكثر شكوكه حول الموت وما يعقبه من فناء أو خلود ،  
فأكثر من الحديث في ذلك دون أن يحزم برأى يظهر اتجاهه ،  
ويكشف عقيدته ، فقد قرأ له القصيدة فتظن أنه من الماديين الذين  
ينكرون خلود الروح ، فإذا انتقلت إلى قصيدة أخرى رأيته  
يتشبث بالفكرة الإسلامية في الخلود والبقاء ، ثم قرأ قصيدة  
ثالثة فتجده في حيرة دامسة بين الرأيين السالفين ، يذكرهما في  
شك وتردد ، دون أن يمتصم برأى خاص يحجر به ، ويصرح  
باعتماده ، وما هكذا الفيلسوف الصادق ، بل إنه صاحب المذهب  
الفكرى الذى يقيم بناءه على دغائم قوية من الأدلة والبراهين ، وقد  
نلاحظ صلات واضحة بين ما قاله أبو الملا وما نظمه الزهاوى ،  
فكلا الرجلين عريق في هواجه وظنونه ، يبنى ويثبت ، ويلحد  
ويستغفر ، ويجزم ويتردد ، وقد أطلق المؤرخون على المرى  
ما أطلقه المحدثون على الزهاوى ، فكان الأديب الفيلسوف ، على  
ضرب من التجاوز ، ولم يكن الفيلسوف الأديب ، وأذكر أن  
الأستاذ أمين الخولى قد كتب كتابه « رأى فى أبا الملا »  
ليجرده من الفلسفة ، ويقتصرها على أصحابها الفكريين ، وقد  
ذكر مجموعة كبيرة من لزوميات أبي الملا ، تظهر تناقضه  
الصريح فى جميع ما ذكره من المعانى والآراء... فهو يقول فى الموت

قرأت المقال الرائع الذى كتبه المستشار الفاضل الأستاذ محمد  
سالم الخولى عن أثر « الرسالة » فى الأدب الحديث ، وقد اغتبطت  
كثيراً بما نم عليه من رأى سائب ، وإطلاع دائب ، وذوق سليم .  
وليس ذلك عجيباً ، فالأدب يمت إلى القانون بأوشج الصلات  
وآ كدها ، فهو عدة المحامى اللسان ينمق به الدفاع ، وسلاح  
القاضى المتمكن يدبج به الحثيات ، ولن ترى فيها مرموقاً لا يستند  
إلى بلاغة الحجة وقوة البيان

وقد لاحظت أن الأستاذ يقول عن الزهاوى رحمه الله أنه  
الفيلسوف الشاعر وليس الشاعر الفيلسوف ! وذلك قول يختلف  
فيه الآراء ، ويفسح مجالاً للمناقشة والتعقيب ، إذ أن الشعرية  
أصل فى جميل ، قام عليها بناء مجده وخلوده ، وكان للفلسفة ظلال  
خفيفة تتراقص فى آياته ومقالاته ، ولكنها لا تصبغ إنتاجه  
بطابعها الدقيق ، فظل الزهاوى طيلة حياته شاعراً يتشوف إلى  
الفلسفة ، وقد يوجد من ينعت به بالشاعر الفيلسوف على ضرب من  
التجاوز يدفع إليه الإطراء والتقدير ، وقد يكون هذا مقبولا جائزاً ،  
أما الذى لا يقبل بحال فهو أن يكون الزهاوى فيلسوفاً شاعراً كما  
ذكر الكاتب الكبير

وحين نعرض لجلاء هذه الحقيقة نذكر أن كلمة « الفلسفة »  
قد فقدت مدلولها الصادق عند كثير من الناس ، فأنت تجد من  
يطلقها على كل مبهم غامض من القول ، ومن يقف بها عند  
البحوث الشائكة التى تتعلق بالتقدير والإله وما وراء الطبيعة ، كما  
تجد من يطلقها على الحكم السائرة ، أو الأمثال المأبرة ، حتى جاز  
أن يكون شعراء الحكم والمواعظ فلاسفة متأملين ، ولو علمنا أن  
الفلسفة هى البحث عن حقائق الأشياء فى شتى مناحى الكون ،  
لا نضح لدينا أن كثيراً ممن تزعمهم فلاسفة شعراء ، لا يصدق  
عليهم الزعم فى قليل أو كثير

ومن البديهي أن الفلسفة لم تكن — مرة واحدة — علماً

والقدر والروح والإله وغيرها أشمارا متضاربة ينقض البيت أخاه ،  
والكلمة سابقتها ، حتى لا يستقر بقراره على موضع ، ثم خرج  
الأستاذ الخولى بالنتيجة السافرة التى تنفى أن يكون من التناقض  
والاضطراب والتردد والحدة مذهب فلسفى يدعى صاحبه  
بالفيلسوف

وسنفحص أقوال الزهاوى على ضوء ما كتبه الأستاذ فى أبى  
الملاء لنصل إلى ما وصل إليه من نتائج ، وحين نفعل ذلك  
لا ننظم الزهاوى فى شئ ، بل نتصفه من الفلسفة وننصف الفلسفة  
من أناس فهموها على غير وجه صحيح ، فلقد حسب كثير من  
القراء فى عصرنا الحاضر ، أن كل كلام يقال فى القدر والحياة  
والموت يمت إلى الفلسفة بنسب عريق ، ومن ثم فقد ظهر لدينا  
ألوف من الشباب ، يتساءلون فى قصائد عن سر الحياة ، وروية  
الموت ، ومن أين نجي ؟ وإلى أين نذهب ؟ ويعلمون أياتهم  
بالدهشة والارتباك والذهول ، ثم يحسبون بعد ذلك أنهم فلاسفة  
شعراء ، مع أن هذه الأفكار التى تجد مجالها فى عقولهم كثيرا  
ما تتردد فى أذهان العامة والأميين ، فهل صار هؤلاء جميعا  
بتساؤلهم الحائر فلاسفة مفكرين ؟ كلا أيها القوم فالفلسفة  
لا تستند إلى الأوهام والتناقض ، ولكنها تستند إلى الجزم  
والثبات ، ونحن نعلم أن من الفلاسفة من بنى فلسفته على الشك  
فى الحقائق ، ولكن الشك شئ ، والتناقض والتردد شئ آخر  
دون نزاع

ولا بد لنا أن نذكر مثالا من شعر الزهاوى يوضح قلقه  
الذهنى ، وتلبله النفس ، وتردده فى مجاهل اللوعة والحيرة ،  
وأقرب شاهد لدينا ما ذكره فى مصير النفس بعد الموت ، فقد  
أطال فى ذلك إطالة تدعو إلى السأم والاستخفاف ، وما تكاد تقرأ  
له قصيدة حتى تستشف أوهامه المأثرة ، وهو واجهه المضطربة ،  
فوجه بذلك أذهان الشبية الشاعرة إلى ما عرفوا فيه من التخرص  
والظنون ، وأصبح المتأدبون من بعده يهجون نهجه ، زاعمين أنهم  
مثله ، فلاسفة شعراء ! وقد ارتاع أستاذنا محمد فريد  
وجدى لهذه النوازع الإلهادية ، متى نسجت بها قصائد الشباب  
فى فترة من الزمان ، فكتب إلى الأستاذ الزهاوى خطبا مفتوحا ،

على صفحات جريدة السياسة ( وقد كانت مسرحا لنوازعه  
المادية ) رجو أن يناقشه نقاشا علميا أطم القراء لتتضح الحقيقة  
للعيان بعد الجدل والتحجيص ، فاعتذر الزهاوى ولم يجد لديه من  
الأسلحة العلمية ما ينازل به فريد ، وعلة ذلك واحدة ، فالشاعر  
إذا نظم قصيدته لا يتقيد بمنطق دقيق بل يرسل آراءه فى جو  
شعرى يستثير الماطفة والانفعال ، وبمحيطه الوزن المروضى  
بضرب من النغم الموسيقى الخلاب ! أما الكاتب فلزم بمقارعة  
الحجة ومناهضة الدليل ، ولن يتقنه من الحقيقة يات ناصع ،  
ولفظ رشيق

لقد قال الزهاوى فى فناء الروح

يقولون إن النفس حق وجودها فلا ينبغى إنكارها وجودها  
فقلت لهم هذا جيل وعلة خيالات عقل شارد لا أريدها  
ولم يكن الإنسان إلا ابن غابة على فجأة قد أجمته قرودها  
فاذا يرى القراء فى هذه الآيات ، إنها مثال من عشرات  
الأمثلة التى تؤكد فناء الروح ، وقارى الزهاوى يجد نظائره فى  
دواوينه ، ورباعياته ، فهل استقر الشاعر على هذا الرأى لندرك  
نزعته المادية ، ونضمه إلى فريق معين من الناس ، كلا ، فالشاعر  
يعلم ما يناقض ذلك حين يقول

فيا نفس سبرى فى القضاء طليقة فلا شئ فيه للنفوس يعوق  
لأت شمع طار عن مستقره وكل شمع بالبقاء خلق  
تحقيق النايا بالجسوم كثيفة وأما بأرواح فليس تحيق  
فا رأى القراء مرة ثانية فى هذا القول ؟ ألا يقف من سابقه

موقف التقيض ! على أن الشاعر لا يرجع نفسه بعد ذلك ، بل  
يفعنا بوابل من التردد المتذبذب بين هذين الثالين ، فهو يعلم  
مرة ثالثة خفاء مذهبه بين القول الأول والقول الثانى ، ويجهز بأن  
الدليل يموزه فى ترجيح أحدهما على الآخر ، ويفرق فى شكوكه  
واضطرابه ، فهو من هواجه فى يدهاء مجهل تتقاذفه الكشبان  
والأودية وتشرده التمرجات والسهوب

وإنك لتلح اضطراباته وبلبلته فى مثل قوله

قالوا وراء الموت أهوال ولم أحفل بما قالوا ولم أتيقن  
ولم هذا الموت يتبع رحلة للروح خالفة وراء الأزمن  
وقوله

الطبيعي ، ولكني أقول إن الزهاوي قد أثبت بكتبه في الطبيعة أنه عالم لا فيلسوف ، ويجمل أن نشير إلى بحث هام نشره الأستاذ محمد فريد وجدي بمجلة الأزهر سنة ١٣٥٦ ، مؤيدا بالأدلة التي تجرد الشاعر من الفلسفة دون تحيف أو إقصاء

لقد كان الزهاوي شاعرا فخلا يطبل القول فيجيد ، وهو من كبار المجددين الذين سنوا للشعر مناهج طريفة وطرائق جديدة ؛ كما كان صاحب رسالة إصلاحية في المجتمع يدين بها ويكافح عنها ، وقد قلبي بسببها آلام السجن والاعتراب ، ولن يضير مجده الأدبي ألا يكون فيلسوفا ، فهو من أدبه الرفيع في قمة عالية وحسن منيع

محمد رجب البيومي

## فلاح الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات



يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع خمس مرات في ٢٠٥ صفحة  
وثمنه أربعون قرشاً هذا أجرة البريد

إني لم بأخبار الحياة وما  
ما بال ليلتنا سوداء حالكة  
وقوله

أحسب أن النفس بعد منيتي  
أم النفس من بعد المنية ريشة  
أم الروح بنت الكهرياء مصيرها  
على أنني ماض إذا صاح بي الردي  
خلال دهور مالها من نهاية  
والأمثلة السالفة وأكثر هواجس الزهاوي لا تخرج عن

قول أبي الطيب التنبلي

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم  
فقبل تخلص نفس المرء سائلة  
ومن تفكر في الدنيا ومهجته  
فإذا جاز لنا أن نعتبر التنبلي فيلسوفا ، فالزهاوي إذن فيلسوف !

وقد كان الزهاوي حينما من الدهر أستاذاً للفلسفة بالأستانة ، فن المؤكد أنه درس كثيرا من الآراء الفلسفية ، ومدرس الفلسفة لا يكون فيلسوفا ، وإلا لجميع أساتذتها بالمدارس والمعاهد والكليات فلاسفة مفكرون ، ولن يصدق هذا أحد من الناس وقد يقول قائل إن الزهاوي قد ألف كتباً علمية هامة ، ونشر في المقتطف والمقطم أبحاثاً طبيعية ، ونحن نمتدح أن هذه الكتب تضع الزهاوي في صفوف العلماء لا الفلاسفة ، وننبئ عن جداته العقلية ، وملكته الفكرية ، كما أنها لم تخل من مطاعن تنجبه إلى دعائها الثابتة فتحيلها إلى أفاض ، فكتاب « الكائنات » مثلاً يقوم على أن الأثير أم الكائنات تتولد منه القوى البسيطة ، فترتق إلى أن تكون مادة ، والمادة ترتق إلى أن تكون عناصر ، والعناصر ترتق وتتركب فتكون أحياء منها الإنسان والحيوان ، وغير خاف أن الأثير شيء افترضه العلماء اقتراضاً ، فكيف يكون نواة الحياة والأحياء في هذا الوجود ، وكتاب الجاذبية للزهاوي يطلعك على عجائب وهمية تتصل بالذماغ والإشعاع والنور والتصور ، وقد أكون ممن لا يستطيعون الحكم على أقوال الزهاوي العلمية ، فلست ممن بتعمقون في البحث